ذكرى/أحمد

قصة قصيرة

بقلـــم

صالح مبروكي

- تصميم الغلاف و الصور الداخلية من انجاز الكاتب.

جميع الحقوق محفوظة للكاتب 2020 ©

الإهـــــداء:

إلى والدي العزيز سي يوسف -رحمه الله- المتوفي سنة 2017- و صديقي الدائم الذي علمني ان الحياة عطاء بلا حدود و أن شرف الإنسان في المحاولة و مقارعة الفشل حتى آخر رمق في سبيل النجاح.

صالح مبروكي

تصديـــــــــــــــر:

"وهل يأبق الإنسان من ملك ربّه
فيخرج من أرض له و سماء"

- أبو العلاء المعري -

"كان يا ما كان.." هكذا نبدأ جميعنا. بداية سفر. نعطي لشخوصنا أشكالا و ميزات مختلفة، نحكي قصصهم و نعيش حياتهم و على امتداد الطريق كله نكون في حاجة ماسة لمن يساعدنا و يشد على أيادينا.

شكرا لكل من ساعد كاتبا في رحلته الإبداعية بأي شكل من الأشكال. من المؤكد أنه من غير مساعدتكم لما كان يمكن لأي عمل ابداعي ان يرى النور يوما.

صالح مبروكي

2020/04/24

ذكرى/أحمد

صحيح أن النساء متشابهات و لكنّهن لسن متماثلات. فهن معادن مختلفة و نماذج متباينة و إن جمعتهن "نون النسوة". و لسن متشابهات "كيف العضام" (بيض الدجاج) كما كانت تقول جدّتي، رحمها الله.

فلا تصدق إن قيل لك أن جميع النساء يملن بالغريزة إلى حب الترف و الغنى و يرمن السكن و الإقامة في "الفيلات" و القصور في المدن الكبيرة و يفضلن الغالي من الملبس و المأكل و المشرب و ركوب السيارات الفاخرة و التجمّل بالحلي الغالي. و لا تصدق إن قيل لك أن جميعهن يمقتن العيش في منازل متواضعة في قرى صغيرة نائيّة.

هذه قصة، على سبيل الذكر لا الحصر، راويتها هي بطلتها، خرجت عن قطيع "العضام" (حسب نظريّة جدتي). رفضت أضواء المدينة و بريق الجاه فخيّرت واعية تواضع القرية و هدوءها. بدّلت رجل الأعمال، الغني المقيم في قصر باهر في مدينة ساحرة، برجل بسيط له منزل متواضع بقرية متواضعة.

أروي لكم هذه الحكاية كما حدثتني بها صاحبتها.

قالت محدثتي: "كنت على يقين أنه عليّ الاختيار فأنت لن تنتظرني طول العمر.
و من حقك ألا تبقى معلقا دون قرار قاطع مني.
إذن لماذا لا أحسم أمري و أوافق؟
هل أن تردّدي يعود إلى خوفي من خوض غمار تجربة جديدة؟ ام أنّني لاأزال أحبّ "أحمد"، الزوج الذي انفصلت عنه بالطلاق منذ ثلاث سنوات مضت. لقد أحببته دائما – أصدقك القول – حتى عندما صرّح لي بأنه لم يعد بوسعه الصبر أكثر و أنه مضطر إلى تطليقي لأني عجزت عن التأقلم مع الحياة التي رسمها لي و لذاته و لأولاده.

كنت على يقين من أنه هو الآخر يحبني، غير أن طموحه كان أكبر من هذا الحب و تم طلاقنا. تركت الصدمة في نفسي جرحا قد لا يندمل. جرح ينزف قلقا و أرقا ملؤه عدم الثقة بنفسي و عجزي الواضح عن مواجهة مرارة الواقع. و عدم قدرتي على اثبات ذاتي في أفق آخر.

تواترت الذكريات متسارعة أمام عيناي، و أنا قابعة منذ لحظات في انتظارك في هذه الشرفة المطلة على الميناء و أضواء السفن تلمع لمعانا خافتا عن بعد. هل تريد أن أحدثك عن حياتي مع "أحمد".؟

لقد نشأت أنا و أحمد فوق أرض هذه الجزيرة الطيبة المعطاة. و أحببنا كلّ شيء في قريتنا الصغيرة، فعشقناها و تعلقنا بها كما يتعلق الرضيع بأمه. حنت علينا و ضمتنا إليها مباركة التقاءنا في أحضانها.

كان "أحمد" متميّزا، ليس في دراسته فحسب، و إنما في شخصيته المعتدة. و قد نعته البعض "بالواهم" و هو يتحدث في صباه عن المشاريع الاقتصادية العملاقة و المقاولات المعمارية الضخمة التي ينوي إنجازها مستقبلا. و لم يتصور أحد أن ذلك الصبي النحيف و فارع الطول كان يعني كل كلمة قالها، و أن طموحه وُلد معه و سرى في دمه و أمسى عقيدته التي يعيش و يحيى من أجل اثباتها. و لم يلتحق "أحمد" بالجامعة كان مثلي ينتمي إلى أسرة متواضعة لا يتحمل دخلها الضئيل مصاريف دراسة طويلة.

فالتحق بعد حصوله على شهادة التعليم الثانوي بمعهد مهني تخرج منه بعد سنتين و هو أكثر تحمسا و أشد طموحا. و بدأ العمل الحرّ من الدرجة الصفر عازما على تحقيق أحلامه و التدرّج في سلم النجاح العملي.

إذا كان الكثيرون قد سخروا من حماسته بادئ الأمر و نعتوه بالغرور و التهوّر، فإن الجميع لم يلبثوا أن حنوا رؤوسهم تقديرا للشاب الصغير النحيف ذي العزيمة الفولاذيّة. الذي لم يأنف من العمل "صانعا" في ورشة ميكانيك حتى استطاع بالكدّ و الجهد المضني و ضع نواة المشروع الكبير الذي كان يحلم به.

كنت يا "مهدي" أرقب كفاحه بقلب خافق، ذلك أنني أحببته، ذلك أنّني أحببته دوما. أما هو فلم يكن يوليني اهتماما، منصرفا إلى بناء أحلامه، ربما هي التي كانت تحجبني عنه. وربما لأني لم أكن ذات جمال باهر. كنت مجرد فتاة عادية خجولة و منطوية على نفسي. لا أتمتع بتلك الأنوثة الجذّابة. لحظة بدأ اسمه يلمع في مدينتنا الصغيرة و الناس يأتون إلى ورشته حتى من المدن و القرى المجاورة. ازددت يقينا بأنه لا يمكن أن يلتفت إلى

فتاة مثلي و هو الذي صار بمقدوره أن يرتبط بأجمل البنات. أحسست بأن هوة سحيقة تفصل بيننا. فإسمه ما انفك يكبر و يتضخم و أنا لا أستطيع إلا أن أكون نفس البنت العادية البسيطة التي لم تنل إلا قسما متواضعا من التعليم.
لكن، حدث ما لم أتوقعه و إن كنت تمنيته من كلّ قلبي..
تقدم أحمد لخطبتي، دون مقدمات، و تم الزفاف في كنف مظاهر الغبطة و الدهشة لحظي السعيد.
و على الرغم من انشغال زوجي بأعماله التي أخذت تتفاقم تدريجيا حتى شملت تجارة قطع غيار السيارات على اختلاف "ماركاتها" و أنواعها.
عرفت برفقته معنى السعادة، منحني كل شيء بسخاء و انطلقنا من حيّنا الشعبي البسيط إلى "فيلا" أنيقة و فخمة في أرقى أحياء مدينتنا.
أحسست عندها أنني و صلت إلى القمة..
لكن، طموح أحمد لا ينفك يتنامى و بإطراد، فهو يؤمن بأن ما وصل إليه هو مجرد بداية لا غير و أن بينه و بين القمة – التي تصورت واهمة أننا وصلناها –خطوات واسعة و مسافات طويلة، عليها أن يقطعها. حتى كانت تلك الأمسية، التي

فاجأني فيها متسائلا: "حبيبتي، ألا ترغبين في الانتقال إلى "تونس" العاصمة؟" لم تعتريني الفرحة، على عكس ما توقع هو، بل انقبض صدري. إذ لم أكن أريد أن أصبح جزءا من تلك الحياة الصاخبة في العاصمة. كنت أميل إلى حياة قريتنا الهادئة. قلت له معترضة: "ما حاجتك إلى العمل في العاصمة؟ لقد نجحت هنا و علا نجمك في الجهة كلها، ماذا تريد أكثر من ذلك؟" أجابني، يا مهدي، بكل ثقة في نفسه: "عيبك الوحيد قناعتك يا حبيبتي. إن وراء مدينتنا الصغيرة هذه عالما باهرا، يضج بالحركة و يزيد الأحلام توهجا. و حينما نكبر فيه سيجئ حتما اليوم الذي تسترجعين فيه الذكريات و تضحكين على ضآلة ما نحن فيه."

تأملته.. باهتة، راعتني نظراته و قد انبعث منها بريق متوهج، أقلقني كثيرا، دار رأسي و تخيلت أحمد وسط عالم صاخب و الناس يدفعونه بعيدا عني. و تملكني خوف مبهم، إنه وسيم و جذّاب و ناجح، و قد لاحظت نظرات النساء تحوم حوله في اعجاب في أكثر من مناسبة. على الرغم من ذلك شعرت بالأمان إذ ما يربط بيني و بينه هو

رباط قلبيّ متين. أما في "تونس" أما في "العاصمة".. ! و في قلق جارف، قلت: "أحمد، لا أزال أفضل حياتنا الحالية كما هي، برغم هذه الأضواء التي تتحدث عنها هناك." قال ضاحكا: "عندما ترتدين أفخر الملابس "عل الموضة" و أضع حول جيدك الناصع أغلى المجوهرات و أزيّن معصميك بأنفس الأساور وأصابعك بأجمل و أثمن الخواتم، ستغيّرين حتما رأيك هذا، حبيبتي.. !"
قلت في حزم: "لا أطمع في شيء من هذا أو ذاك و يكفينا ما وصلنا إليه هنا من نعمة شاملة." رمقني طويلا بنظرة غريبة قائلا: "أرجوك.. سيري معي قدما..
لا تسحبيني إلى الخلف.. !"

لم أكن أتصوّر أنه جاد في ما يقول. لكنه بأسرع ممّا تخيّلت شرع في تنفيذ مشروعه الكبير. و أصبح له في "تونس" مكتب و توكيلات و اتفاقيات و عقود و "أفاريّات" عديدة و صار يقضي أغلب أوقاته فيها، في "فيلا" فخمة اكتراها هناك.

أعترف، يا مهدي، بأنني دعوت الله أن يفشل. كنت بدعائي هذا أحاول قهر المجهول الذي يؤرقني. لكن أحمد، نجح كالمعتاد. و جاءني يوما قائلا: " اشتريت في العاصمة شقة كبيرة و جميلة وأثثتها، في أرقى الضواحي و لا ينقصها إلا وجودك." داهمني الخوف، أنا لم أذهب إلى العاصمة من قبل، ولو مرّة واحدة، قلت بسذاجة: "ليست لدي ملابس تليق بالحياة في العاصمة.. أين أنا من العيش في "تونس" الصاخبة..؟" قهقه، هو، ضاحكا و قال: "العاصمة لا تحتاج إلى ملابس خاصة، و مع ذلك اذهبي لشراء ما شئت بمجرد و صولنا هناك.. لك، تحت تصرفك، كل ما تريدين من المال.. !"

لم أكن أريد مالا أو مجوهرات أو ملابس، إنما كنت أرغب في أن أظل في بلدتي حيث أشعر بمطلق الطمأنينة و الأمان. حيث لا أحد يمكن أن يسخر من مظهري أو يحاول "سرقة" زوجي و انتزاعه مني. و مع ذلك، سافرت معه إلى "تونس" المبهرة الساطعة بكل أضوائها و صخبها. هناك شعرت بضآلتي. ازددت شعورا بحقارتي فيها حينما اشتريت أثوابا لم تثر إعجاب أحمد.

حتى أنه أصر في اليوم التالي أن يختار بنفسه ملابسي.
تجسم ذلك الشعور بالضآلة عندما صمّم أن يصطحبني معه إلى مجتمعه الجديد المكوّن من رجال أعمال أغنياء و مديري بنوك و غيرهم من كبار المدينة "الكبرى." اكتشفت أنه أصبح شخصية لها ثقلها و موقعها في "تونس." و بقدر ما بدا هو وسط ذلك المحيط أنيقا متميّزا محبوبا، بقدر ما ظهرت أنا بجانبه "ضئيلة" "كئيبة" "منطوية" خافتة"، حتى أن الجميع تجاهل وجودي و رغب عن مجاملتي.
بعد إقامة قصيرة هناك، رجوت زوجي أن يسمح لي بالعودة إلى مسقط رأسي و لو لفترة قصيرة. قال لي معتذرا: "لن أتمكن من التردد على قريتنا كثيرا، مسؤوليات عملي و ارتباطاته هنا في العاصمة لا تسمح لي بعطلة. امض بعض الوقت مع أهلك ثم عودي.. السيارة و "الشيفور" على ذمتك.."

بالفعل لم أبتعد طويلا عن زوجي. فعدت إليه محاولة التكيّف مع حياته الجديدة بكل ما فيها من

حفلات و "سهريات" و علاقات و مجاملات و زيارات. و كلما ازدادت وطأة شعوري بالغربية و الضآلة، كنت أهرب عائدة إلى جزيرتنا الهادئة، تاركة أحمد لحياته الجديدة. و كانت النتيجة أننا خلال عام برمته أمضينا أغلب الوقت بعيدا عن بعضنا. هو في "تونس" و أنا هنا بمفردي، إذ لم نكن قد رزقنا بعد بأبناء.

فاجأني بحضوره إليّ على غير عادته في بيت أهلي، بادرني قائلا: "من الاستمرار على هذا الوضع. تدركين ذلك تماما كما أدركه.. ! لا أنا بالمتزوج و لا أنا بغير المتزوّج." شعرت بذعر لم يساورني مثله من قبل. و استطرد قائلا: "صحيح أنني أحبك، غير إني بحاجة إلى زوجة تعيش معي إلى جانبي دائما و في المكان الذي أنا مستقر فيه. حياتي أصبحت مرتبطة بعملي هناك، في العاصمة، و أريد لأولادي في المستقبل أن يتعلموا في أرقى مدارسها. و أنت، يا ذكرى، أرغب في أن أراك متأقلمة مع مجتمعي، قادرة على مواكبة رحلة طموحي. في استطاعتك ذلك لو أعملت إرادتك و حكمت عقلك. أنا أحبك و أريدك. لكنني تعبت من الحياة بمفردي هناك.." لم أجد ما أجيبه

به، كان على حق، إنه يحتاج إلى زوجة تكون له رفيقة و مرافقة حيثما ما حل. أخيرا، رفعت وجهي نحوه قائلة في توسل: "ألا أستطيع أن أبقى هنا و تأتي أنت لزيارتي بين الحين و الآخر..؟ تأفّف قائلا بحدة، وهو يقف،: "كأنني أحرث في البحر. لا.. لا ليست هذه هي الحياة التي أريدها لنفسي.. ! اسمعي.. ! إذا لم توافقي عل المكوث معي نهائيا في العاصمة فأنا مضطر إلى الانفصال عنك نهائيا.."
صرخت متألمة: "هل هنت عليك إلى هذا الحدّ..؟
قال في وثوق: "كنت معك عادلا، أعطيتك أكثر من فرصة و لازلت أعرض عليك حلاّ لمشكلتنا، يلم شملنا. فإختاري، حالا، بيني و بين "هنا"

فشلت محاولاتي وتم الطلاق. و اختفى أحمد نهائيا من حياتي. و قد باع كل ما يملك هنا و استقر في عاصمته دون رجعة. بعد سنة كان لقائي بك و أنت الموظف المبتدئ بإحدى الإدارات و القادم من قرية نائية في أقصى الجنوب و المنتمي إلى أسرة متواضعة مثلي، لا يطمع في أكثر من "الستر" و راحة البال. ارتحت إليك و أعجبت

بقناعتك النادرة. تذكر أن الفضل في تعارفنا يعود إلى (مضمون ولادة) ساعدتني على استخراجه بسرعة لإضافته إلى ملف طلاقي من أحمد. و منذ تلك اللحظة أحسست أن رابطة قوية ستجمع بيننا في يوم من الأيّام.
و الغريب أنني على الرغم ممّا شعرت به من أنك أنت هو الرجل الذي كان عليّ أن أتزوجه منذ البداية للتشابه الكبير في طباعنا. إلا أنني كلما حاولت إقناع قلبي بك، كانت ذكريات حبّي لوجي السابق تقف حائلا بيني و بينك. و لم تكن أنت في الحقيقة تستحق مني هذا الموقف السلبي. لذلك قررت اتخاذ موقف حاسم مع نفسي مهما كانت النتائج. ما كان يمكن لي الوصول إلى قرار حاسم دون أن أواجه أحمد و أعرف حقيقة ما أريد.

سافرت إلى تونس، اتصلت هاتفيا بأحمد و اتفقنا على اللقاء في مشرب نزله الفاخر. لحظة و قف أمامي، شعرت كما لو أن الزمن قد توقف أو أُلغي تماما. كأن ثلاث سنوات لم تمر على فراقنا. هتف كل منا باسم الاخر:

- "ذكرى.. !"
- "أحمد.. !"

تعانقت يدانا في شوق حارق. نظرت في عينيه بإعجاب، قال مرتبكا:

- "مرحبا بك.. اشتقت لك كثيرا.. !"

ابتسمت قائلة:

- "اريد الاعتراف لك بأنني لم أستطع نسيانك، كنت مجنونة..! إذ لم أستمت في سبيل ارضائك. أرجو ألا يكون الوقت قد فات من أجل محاولة جديدة.. !؟

أشعل سيجارته – و لم يكن يدخن على عهدي به – ظل لحظات صامتا ثم تكلم ضاغطا على مخارج ألفاظه:

- "هل تغيّرت حقا؟ هل في استطاعتك التكيّف مع حياة العاصمة بكل ما فيها من التزامات كزوجة رجل أعمال ناجح و مشهور..؟"

لم أكن في الحقيقة قد فكرت في ذلك. كلّ ما فكرت فيه هو أن أعود إلى حياته،

قلت بتردد:

- "سأحاول.. !"

قال، بعد أن صمت برهة:

- "أنت حاولت مرارا و تكرارا في الماضي و كان الأمر فوق احتمالك. هل تذكرين..؟"

كان على حق، أنا لم أتغيّر، مثلي لا يتغيّر، تظل في قوقعتها. لا تتمكن من مشاركة رجل طموح مثله رحلة حياته الصاخبة في عاصمته الصاخبة.

و لكن.. قطع عليّ حبل أفكاري الشاردة، قائلا بافتخار:

- "لقد تزوجت منذ سنة من امرأة رائعة و متجاوبة مع وضعيتي و تشاركني مجالات حياتي و أعمالي. نجحت معي و نجحت معها. و كانت المبادرة منها هي.."

و كأنما أراد أن يترفق بي فوضع يده فوق يدي هامسا:

- "ما من شك في ان الحب الذي جمعنا يوما لن يموت وسيبقى بوجداني دائما و أبدا. لكن صدقيني، إن كلانا كان الشريك الخطأ للآخر و مسؤوليتي عن ذلك أكبر من مسؤوليتك أنت. و كنت قد وُفقت الآن إلى الشريكة الملائمة. فثقي بأنك ستعثرين على رجل

مثلك و مناسب لك لا تستهويه لا العاصمة و لا المال و لا الجاه. فلا تنظري إلى الوراء و لا تفكري في شأن قد فات و انقضى.. !"

قلت في صوت مبحوح:

- "معك حق.. لقد جئت إليك باحثة عن جواب معين و ها أنني قد عثرت عليه.."

تركني و انصرف إلى عالمه، انتهى كل شيء بيننا، قد يكون ذلك أفضل. فهو يستحق فرصة السعادة التي وفرتها له زوجته "بنت تونس". أما أنا، كما هي أنا، فانت تنتظرني لأنك تناسبني لنسير على درب واحد و نحو هدف واحد. أستطيع أن أبدأ معك صفحة جديدة بيضاء ناصعة. فهمت أخيرا نفسي. إنني إمرة ليست ككل النساء أو أن جميعهن لسن مثلي. المهم ان ما يخطف أبصارهن و قلوبهن لا يعنيني. المال و مشتقاته لا يهمني بقدر ما يهمني التواضع و يجتذبني الهدوء و "راحة البال" بعيدا عن الصخب و الضجيج. هدوء النفس و رضاها. شعرت بالراحة لأوّل مرّة في حياتي، كُتب عليّ و ما أمتعه من اختلاف بالنسبة إليّ.

يا مهدي، إن فهم النفس يؤدي إلى السعادة فهمت إني لست مثل كل النساء، أنني مختلفة، وكفى.. و أنني سعيدة مغتبطة باختلافي هذا. المال وسيلة لا غير و لن يكون في عينيّ غاية اطلاقا. ولاح لي وجهك، عزيزي، وجه راض طيب المحيا بلا ظلال و بلا بهرج. فأحببتك بقلبي و عقلي و ازددت اقتناعا بك و تمسكا باختلافي.

فرغت ذكرى من حديثها ثم تطلعت إلى تلك الأضواء الخافتة المنعكسة على سطح بحر جزيرتها تتأملها في صمت.
أشعلت، أنا، سيجارة نفثت دخانها في شرود.
وضعت يدي فوق يدها و خاطبتها برفق:
"حبيبتي، فلنذهب الآن.. !"

– تمت –

استطراد..

"لا تسقط التفاحة بعيداً عن الشجرة."
(حكمة عالمية)

"إذا كانَ أصلي من ترابٍ فكُلَّها.. بلادي وكلُ العالمينَ أقاربي."
(أبو الصلت أمية الإشبيلي)

"أصلي ترابٌ فالأنام بأسرهم لي أقربون و كل أرضٍ داري."
(ابن الوردي)

"انتهى الكتاب.. على القارئ، الآن، أن يلعب.."
(مثل عالمي)

خاتمة..

رحلة العمر تبتدأ بلحظة وتنتهي بلحظة و بين اللحظتين يشحن الواحد منا "بطاريات" وجوده ألف مرّة و مرّة لمدة ساعات
طويلة و طويلة مثل ذاك الاختراع العجيب "الهاتف الغبي"، و قد تكون ممّلة و مضنية أحيانا أخرى. يشحنها ليعيش و يشحنها كذلك حتى لا يعيش في سكون و شتان بين السكون و الحركة. شتان بين أن نعيش أو لا نعيش.
رحلة ممتعة و لذيذة، رحلة الوجود، رحلة الموجود. تيه و انطلاق من مجهول غير معلوم – مبهم و "مطلسّم"– نحو معلوم قد يفلت من الرتابة. رتابة الحياة اليومية المتكرّرة الممّلة و لكنها واجبة الوجود و تلك هي الحياة الحقيقية التي يجب أن نحياها و ننجح فيها. هنا "تنفذ" البطارية و لابدّ من إعادة شحنها.
بين اللحظتين الأولى و الأخيرة كانت بطارياتي كلماتي و شُحنتها: أفكار و تجارب و ذكريات و ربما أحلام تاهت فيّ و تهت فيها فكانت "قتلها كورونا" و ضعتها بين أيديكم ، سيداتي، سادتي، متاهة مكشوفة و كلمات متقاطعة يصحبها الحل في نفس "العدد". ليست هي ضياعا وليست ضلالا أو تضليلا. ليست هي السطح و ليست العمق. ليست هي الحلّ و ليست الإشكال. هي بكل بساطة من وحي خيال مؤلف.
(شكرا.-الكاتب)

صالح مبروكي

صالح مبروكي

جميع الحقوق محفوظة للكاتب © 2020

صالح مبروكي

كاتب و قاص تونسي من مواليد سنة 1968 بمدينة أم العرائس المنجمية، فيها زاول تعليمه الابتدائي و الثانوي، ومنها انتقل إلى العاصمة و شهادة البكالوريا آداب "في جيبه" ليدرس بمعهد الصحافة و علوم الإخبار.

فني مؤهل بشركة فسفاط قفصة منذ سنة 2002 في ميدان المكتبية والسكريتاريا و التصرف التقني.

بالاعتماد على التقنيات الجديدة في ميدان الإعلامية و الوسائط المتعددة تمكّن من تعليم نفسه بنفسه و اكتسب مهارات في الأنفوغرافيا و غيرها من الأدوات الفنية الرقمية الأخرى.

من إصداراته المنشورة: "غياهب التّيه.." (مجموعة قصصية-2019) و "طقوس ممحاة.." (مجموعة شعرية- 2020)

- الإقامة: أم العرائس-قفصة-الجمهورية التونسية.
- الهاتف: (+216) 98 603 987
- البريد الإلكتروني: salehymabrouki@gmail.com